

المحاضرة التي ألقاها

الدكتور محمود السيد

وزير التربية الأسبق في الجمهورية العربية السورية

رئيس لجنة تمكين اللغة العربية في سوريا ونائب رئيس مجمع اللغة العربية في دمشق

بدعوة من

اللجنة الثقافية التابعة للمجلس العالمي للغة العربية في بيروت

بعنوان

" لغة الغالب والمغلوب: تفاعل أم تغييب "

بتاريخ ٢٥/٤/٢٠٠٩ ميلادية

في قاعة المحاضرات في مجمع كلية الدعوة الإسلامية في بيروت

باب: أبحاث ودراسات

www.dalilmag.net

بسم الله الرحمن الرحيم

لغة الغالب والمغلوب: تفاعل أم تغيب؟

نحاول في هذا البحث الموجز أن نعرّف أولاً العلاقة بين الغالب والمغلوب كما أشار إليها العلامة ابن خلدون في مقدمته، ومن ثم نقدم أمودجاً في مجال التفاعل، وأمودجاً آخر في مجال التغيب، وقد اخترنا لغتنا العربية أمودجاً للتفاعل الخلاق إبان ألق حضارتنا العربية الإسلامية، كما اخترنا اللغة الإنجليزية في عصرنا الحالي، عصر العولمة، أمودجاً للتغيب والسعي إلى تهميش لغات المجتمعات غير الناطقة بالإنجليزية لصالح الإنجليزية وتوسعها وانتشارها على حساب اللغات الأخرى لتلك المجتمعات. ونقف أخيراً على تبيان الموقف الذي نشده للغتنا العربية لمواكبة روح العصر ومواجهة تحديات العولمة في جانبها المظلم.

أولاً - العلاقة بين الغالب والمغلوب

أشار العلامة "ابن خلدون" في مقدمته إلى أن المغلوب مولع أبداً بالاعتداء بالغالب في شعاره وزيّه ونحلته وسائر أحواله وعوائده، وعلّل ابن خلدون هذا الاعتداء بأن النفس أبداً تعتقد الكمال في من غلبها وتنقاد إليه، إمّا لنظرها بالكمال بما وُفّر عندها من تعظيمه، أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي إنما هو لكمال الغالب، ولذلك نرى المغلوب يتشبه أبداً بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه في اتخاذها وأشكالها، بل وفي سائر أحواله.

ويؤيد "ابن خلدون" رأيه قائلاً: "وانظر ذلك في ا بناء مع آبائهم كيف تجدهم متشبهين بهم دائماً، وما ذلك إلا لاعتقادهم الكمال فيهم"^(١)، ويبين أنه إذا كانت أمة تجاور أخرى، ولها الغلب عليها فيسري إليها من هذا التشبه والاقتران حظ كبير كما هي الحال في ا ندلس في هذا العهد - عهد ابن خلدون - مع أمم الجلالقة فإنك تجدهم يتشبهون بهم في ملابسهم وشاراتهم، والكثير من عوائدهم وأحوالهم حتى في رسم التماثيل على الجدران والمصانع والبيوت حتى لقد يستشعر من ذلك الناظر بعين الحكمة أنه من علامات الاستيلاء.

ومن الشواهد التي يقدمها "ابن خلدون" لتأييد وجهة نظره قوله: "وتأمل في هذا سر قولهم العامة على دين الملك فإنه من بابه، إذ إن الملك غالب لمن تحت يده، والرعية مقتدون به لاعتقاد الكمال فيه اعتقاد ا بناء بأبائهم والمتعلمين بمعلميهم"^(٢).

وإذا انتقلنا إلى ميدان اللغات فإننا نلاحظ أن ا مم والشعوب أدركت في عصور التاريخ ضرورة الوحدة اللغوية بين الناس، فكان أن نشأت في كل عصر تاريخي لغة مشتركة اصطنعتها عدة شعوب حيناً من الدهر ثم بادت أو اندثرت، فاللغة ا كادية أو لغة بابل وآشور تلك التي سادت في حوض دجلة والفرات قد انتظمت العالم القديم فترة من الزمن، ثم جاءت بعدها ا رامية والإغريقية واللاتينية ثم العربية، وأخيراً في العصور الحديثة الفرنسية والإنجليزية. وكل لغة من هذه اللغات حاولت ما وسعتها المحاولة أن تهيمن وتصبح لغة الناس كافة، إلا أن تلك المحاولات باءت بالإخفاق، وظل اختلاف ا لسنة قائماً على أنه من آيات الله.

وعلى الرغم من أن اللسانيين المعاصرين يرون أن جميع اللغات متساوية من وجهة نظرهم فإن هذه المساواة ما كانت إلا على صعيد المبادئ والنظريات، إذ تبين على الصعيد العملي أن اللغات لا يمكنها جميعاً أن تؤدي الوظائف نفسها، فمن البدهي مثلاً أن اللغة غير المكتوبة لا تستطيع أن تكون وعاء لعملية محو ا مية، وأنه من الصعب جداً تدريس المعلوماتية بلغة لا تشتمل على مصطلحات المعلوماتية، وتدريس النحو بلغة ليس ثمة فيها أصناف نحوية، وأنه يصعب اختيار لغة مستعملة من أقلية من السكان على أنها لغة توحيد لهذا البلد... الخ، وإذا أريد سبب سياسية استعمال مثل هذه اللغات داء هذه الوظائف كان لا بد من سد العجز الذي تعاني منه، وتجهيزها لكي تنهض بهذا الدور.

ومن الملاحظ على الصعيد العالمي أن اللغات تتصارع وتتغالب كما تتصارع الشعوب، فيغلب القوي منها الضعيف، وما يزال يصرعه حتى يقضي عليه، وأن بعض أفراد اللغة أو ألفاظها قد تنتقل أو تهاجر من لغة إلى أخرى كما يهاجر بعض الناس من بلد إلى بلد، وعوامل الهجرة اللغوية تكاد تكون هي عينها عوامل الهجرة البشرية التي تشمل العوامل الثقافية والسياسية والاجتماعية والتجارية والحربية... الخ^(٣).

وإذا كانت سنة الحياة أن الغلبة للأقوى فإننا نجد في ميدان الثقافات بين الشعوب والثقافات أن ثمة تفاعلاً خلاقاً يمكن أن ينشأ بين هذه الشعوب وتلك الثقافات، كما يمكن أن يكون ثمة هيمنة للقوي على الضعيف واستبعاد لهويته وتهميش لثقافته ولغته والسعي إلى أدها.

ولقد عرفت البشرية عبر تاريخها تفاعلاً إيجابياً خلاقاً تجلّى في ثقافتنا العربية الإسلامية ولغتها العربية الفصيحة، وتشهد البشرية حالياً وفي ظلال البعد المظلم من العولمة هيمنة للثقافة القطبية الواحدة ولغتها الواحدة على الصعيد العالمي، وهذا ما يشكل خطراً على الذاتية الثقافية للأمم ولغاتنا م.

ثانياً - لغة الغالب تفاعل: العربية أنموذجاً

لقد كانت لغتنا العربية أنموذجاً للتفاعل الخلاق بين الغالب والمغلوب، فلغتنا العربية في بداية انطلاقها إبان الفتح الإسلامي، وتوسع الدولة الإسلامية وانتشار العرب في بقاع من أرض لم يكن لهم بها عهد من أجناس ولغات وأديان وحضارات متعددة، وكان ذلك حرياً أن يلتهم هذه اللغة التي خرجت من نطاق ضيق وإطار محصور في الجزيرة العربية، وأن يقضي عليها، ويستبدل بها غيرها من لغات أمم أخرى التي اتصلت بها وعاشت معها، وكانت أعرق منها في مجال العلم والثقافة والحضارة، ولكن اللغة العربية ازدادت اتساعاً في ميادين المعرفة، وانتشاراً في أرجاء العالم المعروف آنذاك، وتدفق الشعر والنشر والتأليف والترجمة في العصر الموي ثم في العصر العباسي، فحملت اللغة العربية علم الإغريق وفلسفتهم، وعلوم المسلمين وأدبهم من شعر ونثر إلى أوروبا، وكان العلماء الأوروبيون يستعملون العربية لغة للتعليم والتعلم، ويترجمون منها إلى اللاتينية.

وتجدر الإشارة إلى أن حال المثاقفة في اندلس تدعونا إلى الانتباه إلى أن كثيراً مما أنتج في عصر النهضة في أوروبا إنما كان نتيجة للتثاقف بين العرب وروبيين، ومما يؤسف له في أيامنا هذه أن بضاعتنا لم ترد إلينا بتراهة، بل رافقها مشروع سياسي يستهدف تغييب هويتنا.

لقد احترم العرب إبان ألق حضارتهم الثقافات الأخرى، فترجموا عن الفارسية والهندية واليونانية، واطلعوا على تجارب الآخرين، ثم أبدعوا وابتكروا وطبعوا ذلك كله بالطابع العربي، وقدموا خلاصة تجربتهم في ميادين العلوم والمعارف إلى أوروبا.

وإذا كان العرب قد احتفظوا بعلوم اليونان والرومان والفرس والهنود ونباط في الفلسفة والطب والفلك والرياضيات وغيرها فإنهم في الوقت نفسه حافظوا على الفنون الزراعية، وعملوا على توسيعها ونشرها فقد ذكر بعض العلماء الغربيين ومنهم النباتي السويسري المشهور De Candolle صاحب كتاب "مهد النباتات الزراعية" أن العرب نقلوا إلى سواحل البحر المتوسط زراعة القطن وقصب السكر والمشمش والخوخ والرز والخروب والبطيخ والبادنجان وغيرها، وأن الروبيين اقتبسوا زراعتها منهم إما في صقلية، أو في اندلس، أو في عودتهم إلى بلادهم زمن الحروب الصليبية.

ومن أدلة على تأثير العرب في نشر النباتات الزراعية أن اللغة الفرنسية اقتبست من لغتنا أسماء عدد غير قليل من النباتات المذكورة مثل Artichaut: الخرشف، Aubergine الباذنجان، Azerolier: الزعرور، Cafeier، القهوة، Caroubier: الخروب، Colocase: القلقاس، Cotonnier: القطن، Estragon: الطرخون، Henne: الحناء، Jasmin: الياسمين، Ketmie: الخطمي، Lablab: اللبلاب، Lemonier: الليمون، Nenuphar: النيلوفر، Sumac: السماق... الخ⁽⁴⁾.

وكان لكتب الفلاحة العربية والتجارب وعمال الزراعة تأثير في فلاحة إسبانيا وقوام المجاورة لهم، ففي اندلس ظهر عدد من العلماء تجنّبوا ذكر وهام والخرافات في كتبهم، وتبعوا عمال الزراعة في أراضيهم وأراضي الفلاحين، وعكفوا على التجارب الزراعية في الحدائق والحقول، وأصبحت الفلاحة في اندلس فناً تجرّب فيه تجارب عملية مختلفة كتأثير بعض السمدة في غلات النباتات الزراعية، وأشكال التقليم والتطعيم، وزراعة نباتات أجنبية في

مختلف ا قاليم الزراعية، ومكافحة بعض ا امراض والحشرات، وإيجاد أصناف جديدة من الغلات وا ثمار وغير ذلك.

وليس بعجيب أن بلغت مدينة العرب في ا ندلس المستوى الرفيع الذي يعرفه العالم أن يقتبس الفلاحون الإسبان من مجاوريهم العرب المفيد من ا عمال الزراعة، وأن يزرعوا ما نقله العرب إلى ا ندلس من النباتات الزراعية المشهورة، وأن ينقل بعض الإسبان كتب الفلاحة العربية إلى اللغة الغشتالية للإفادة منها كما أشار إلى ذلك المستشرق الإسباني "خوسي ماريه مياس بيكروسا" في كتابه المترجم إلى العربية بعنوان "علم الفلاحة عند المؤلفين العرب"^(٥).

ولقد ذكر الدكتور بو علام بن حمودة أن ثمة ١١٧٠ مفردة في اللغة الإسبانية هي عربية ا صل، وقد ورد ذلك في كتابه "ا صل العربي الصحيح لعدد من الكلمات الإسبانية"، كما ورد فيه أن هناك ١٦٨٨ من المفردات المشتقة، ورتب فروع المعرفة التي وقع عليه التأثير اللغوي العربي ترتيباً تنازلياً فكانت أربع عشرة درجة أولها قطاع الفلاحة والصيد البحري، وآخرها علم الرياضيات، وبين هذا وذاك تأتي علوم الحضارة الشائعة وألفاظها في الحياة اليومية، وهي تتمثل في الصناعات والحرف وا لبسة وا ثاث والإدارة والفنون وا داب والدين والحرب والحيوانات والتجارة والمعاملات وا طعمة والصحة والتنجيم وا شغال العامة وغيرها^(٦).

وفي مجال النحو درس النحاة اليهود في ا ندلس النحو العربي، وألفوا نحواً للعبرية على أساس معرفتهم بمنهج التحليل النحوي عند العرب، وظهر في المغرب وا ندلس فوج من علماء اليهود اقتبسوا مناهج اللغويين والنحاة العرب، وطبقوها أيضاً على اللغة العبرية، وعلى رأس هؤلاء مناحم بن سروق وأبو سليمان داود بن إبراهيم الفاسي الذي ألف معجماً ضخماً للغة العبرية يقع في مجلدين كبيرين، وجعل شرحه للألفاظ بالعربية^(٧).

وفي جنوب شرق آسيا وخاصة ماليزيا وأندونيسيا دخلت عناصر عربية في صلب المفردات الثقافية لبعض لغات الهند الصينية، فقبل دخول الإسلام إلى هذه المناطق كان التجار العرب يجوبون سواحل المنطقة بسفنهم الشراعية، ويقيمون المراكز التجارية فيها كما فعل في وقت لاحق التجار ا وروبيون، إلا أن التأثير الثقافي واللغوي الحقيقي لم يظهر جلياً إلا مع حركة انتشار تعاليم الدين الإسلامي، كما ينطبق في المقام ا ول على الشعب الماليزي ولغته في جنوب البر القاري، ولغة الشعب ا ندنوسي في أرخبيل الجزر ا ندونيسية، وحتى في لغات البر القاري

التي يتحدثها أناس غير مسلمين اقتبس الكثير من العبارات والكلمات العربية ا صل نتيجة العلاقات التجارية في المقام ا ول، فعلى سبيل المثال Arak بالبورمية "مشروب كحولي" هو عرق بالعربية و Kalom هو قلم بالعربية.

وبصورة عامة أثرت العربية تأثيراً مباشراً في اللغات الهندية بوجه عام حتى أصبحت العربية في السند لغة التخاطب، وما تزال لغة السند تكتب بالخط العربي وتضم مفردات عربية قد تجاوزها الحصر.

أما تأثير العربية غير المباشر في اللغات الهندية ف جاء بطريق الفارسية، وتراوح نسبة الكلمات العربية فيها بين ٢٠ و ٦٠%، وهذا ما يدل على قوة انتشار اللغة العربية وسيطرتها على اللغات في ذلك العهد، وما يزال في ا دب ا ردي استعمال المصادر العامة مثل: "اجتناب، اجتهاد، إجلال، احتياط" وغيرها ألوف من أمثالها، والصفات مثل: "آثم، آجل، أبله، أحقق، أعلى"، ومنها ما يدل على اللون مثل: "أبيض، أبلق، أحمر، أخضر، أدهم، أزرق"، ومنها الاصطلاحات الدينية مثل: "أوقاف، أولياء، أوصياء، إلحاد، إفتاء، إعجاز، اعتكاف، استغفار، ارتداد، إحرام"، ومنها الإصطلاحات القانونية مثل: "وكيل، معجل، مدعي، مدعى عليه، استغاثة، استرداد، استحقاق، أداء الشهادة، إبراء الذمة، اتهام، محضر... إلخ" ومنها الإصطلاحات العلمية في العلوم النظرية مثل: "إلهيات، طبيعيات، اقتصاديات، رياضيات، اجتماعيات، أخلاقيات، نظريات، وغيرها"، وهذه كلها تستعمل بمعانيها العربية بلا تغيير، وهناك اصطلاحات أخرى تتعلق بالتاريخ والجغرافية والهندسة والرياضيات والقواعد اللغوية، حتى يخيل لمن يدرس هذه العلوم أنها ترجمت بمبادئها واصطلاحاتها من العربية^(٨).

إن لغتنا العربية تفاعلت مع اللغات قبل الإسلام وبعده، فقد احتكت بأمهات اللغات القديمة وتأثرت بها، ومن بين هذه اللغات الفارسية واليونانية والنبطية و ا رامية والعبرية والحبشية والهندية. وفي اللغة العربية كلمات وأصول لغوية منقولة أو مهاجرة من هذه اللغات، حتى لقد قيل إن معظم ا لفاظ الدالة على الحضارة والملك و ا ثاث والرياش منقولة عن الفارسية، وأن معظم ا لفاظ المتصلة بالعلم والفلسفة منقولة عن اليونانية، وأن كثيراً من الكلمات الدالة على النباتات وشؤون الزراعة منقولة عن النبطية، وأن ما يدل على طقوس دينية أكثره منقول عن العبرية أو السريانية أو الحبشية، وإن ما يدل على التوابل والعقاقير، و ا طياب و ا حجار الكريمة فأصله في الغالب من السنسكريتية أو الهندية.

ومن ا لفاظ اللاتينية أو اليونانية ا صل القسطاس والدرهم والقنطار والقبان والاصطراب والترياق والبطريق والقنطرة، ومن ا لفاظ العبرية ا صل: الملكوت، الجيروت، كاهن، حبر، ومعظم أسماء ا نبياء، ومن الالفاظ الحبشية ا صل: مشكاة، ونفاق وحواري وبرهان ومصحف، ومن الكلمات السنسكريتية ا صل: صبح وبهاء وضيء ومسك. ومن ا لفاظ الهندية ا صل: كافور وزنجبيل وفلفل^(٩).

وقد دخل العربية في العصر الجاهلي كثير من ا لفاظ الفارسية، وجاء الإسلام، ونزل القرآن الكريم فاستعمل بعضها مثل سندس واستبرق وإبريق... إلخ، وكثيراً ما كان العرب يشتقون من ا سماء الدخيلة أفعالاً فاشتقوا زرکش أي نقش أو رسم بالذهب من زرکش أي الراسم بالذهب، ومن كهرباء كهرب، ومن مغناطيس مغطس، ومن قسطاط قسط بمعنى ظلم، وأقسط بمعنى عدل، ومن مهر (خاتم) مَهَر الكتاب بمعنى ختمه أو ذيله بتوقيعه، ومن ديوان دوّن... إلخ.

وعلى الرغم من قوة النفوذ الفارسي في العصر العباسي بقيت اللغة العربية لغة الدين والسياسة والعلم، واتخذها علماء الفرس وأدباؤهم أداة للتعبير عن أفكارهم وتسجيل آرائهم وتصوير أحيلتهم وعواطفهم.

ومن مظاهر الصلة بين العربية والفارسية الترجمة من إحدى اللغتين إلى ا اخرى شعراً أو نثراً، فقد ترجم تاريخ الطبري إلى الفارسية، وتفسير الطبري للقرآن الكريم من العربية إلى الفارسية. ومن مظاهر تأثر كل من اللغتين با اخرى استعمال العرب لكثير من الكلمات الفارسية بعد تعريبها، واستعمال الفرس لعدد أكبر من الكلمات العربية في لغة التخاطب ولغة ا دب في كلتا الحالتين^(١٠).

وتجدر الإشارة إلى أن اللغات ا وروبية أخذت عن العربية بعض المصطلحات الرياضية مثل الجبر والصفير واللوغاريتمات، وبعض المصطلحات الكيميائية كالكحل والقلويات... إلخ.

ونخلص من ذلك كله إلى أن التفاعل بين العربية وغيرها من اللغات إنما كان تفاعلاً فعالاً حيث دخل إلى اللغة العربية أجلّ ما في تراث ا وائل من أمهات المؤلفات في مختلف فروع العلم، كل ذلك بلغة عربية فصيحة حتى إن كل مادة ا وائل العلمية والفكرية أصبحت في القرن الرابع بيد العرب، وتأثرت الحضارة العقلية بمختلف الثقافات، وتطورت العقليات فاكسبت ميزات طريقة من عمق في التفكير، وبراعة في التحليل، واستيعاب للمعاني، وترتيب

للأفكار. وظهر أثر اللقاح جلياً واضحاً من حيث الدقة والتحليل والتفصيل والابتكار والتجديد والترتيب والتنسيق والتأثر بالمنطق وأقيسته، واصطبغت الحضارة بأصباغ جديدة مزجتها حكمة الهند وأدب الفرس وتأمل اليونان، وصار المولدون يستشهد بهم في المعاني كما يستشهد بالقدماء في ا لفاظ كما يقول أبو الفتح عثمان بن جني^(١١).

ووصل العلماء باللغة العربية إلى الوفاء في مستوى التعبير العلمي بمحتوى العلوم واستيعاب العمليات الفكرية والتفاعل معها وتجاوزها، وهم طوروا صيغ العربية وطوعوها وأغنوها بالمصطلحات وغيروا طابعها ذاته فأصبحت لغة حضارة شاملة.

ومن أهم ا بواب التي تفتحت عليها اللغة مصطلحات العلوم في الرياضيات والفلك والفيزياء والكيمياء والنبات والكواكب السيارة وأسماء النجوم وأسماء النباتات والمصطلحات الطبية ومصطلحات الفلسفة، وإدخال تراكيب أعجمية على العربية مست أحياناً من روحها، وزاغت بها عن أسلوبها وعن جادتها كاستخدام الفعل المبني للمجهول والكثير من الجمل الاعتراضية واستعمال فعل الكون ومشتقاته وضمير الغائب، ونحت الكلمات بإدخال (لا) النافية عليها كاللانهاية، واللاكون واللاأدرية... إلخ^(١٢).

ويشير "برنارد لويس" في كتابه "الإسلام والغرب"^(١٣) إلى أن اللغة العربية كانت اللغة ا كثر ترجمة في العالم حتى عصر النهضة والإصلاح، أي حتى الفترة التي بدأت فيها الموجة الكبيرة من ترجمات الكتب المقدسة وا عمال الكلاسيكية في الغرب، إن من حيث عدد الكتب المترجمة عن العربية أو في عدد اللغات التي درست فيها هذه اللغة.

لقد غدت اللغة العربية منذ القرن السابع لغة مقدسة - لغة القرآن الكريم الكتاب المقدس عند المسلمين - ولغة المؤلفات ا ساسية في علم الدين والقانون الإسلامي، وكانت الوسيط بين كم من الكتابات العلمية وا دبية والفلسفية، وتعد نموذجية وجديرة بالاعتماد ليس من العرب أنفسهم فقط، ولكن من الشعوب المسلمة ا اخرى، لغة عملية تستخدم على نطاق واسع في الحكومة والمجتمع والتجارة، وكانت في العصور الوسطى الإسلامية المُعادل للغة اللاتينية واليونانية في الغرب إضافة إلى اللغات العامية ا دبية حتى بدايات الفترة المعاصرة.

ثالثاً - لغة الغالب تغييب: الإنجليزية أمودجاً

إذا كانت لغتنا العربية مثلاً حياً للتفاعل الخلاق إبان ألق حضارتنا العربية الإسلامية وتفوقها على الرغم من قوة أصحابها آنذاك وهمنتهم على شؤون الحياة كافة، فإننا نلاحظ في حياتنا المعاصرة التي تسود فيها العولمة، ولغتها المعتمدة الإنجليزية، أن ثمة هيمنة للغة ا قويا على الضعفاء، ومخططاً لاستبعاد اللغات ا م للمجتمعات، وقصداً لتغييب هويتها وذاتيتها الثقافية.

وغني عن البيان أن البشرية شهدت منذ عصر الاكتشافات الجغرافية والعلمية في القرن الخامس عشر، ومنذ بداية عصر الاستعمار في القرن الثامن عشر على أبعد تقدير، عملية عولمة مبكرة أدت إلى تزايد المعارف عن العالم باستمرار. أما الذي يميز مرحلة التطور الحديثة للعولمة عن المراحل السابقة لهذه العملية الفعالة منذ مئات السنين فهو سرعة انتقال المعلومات والبيانات، وكثافة شبكة الاتصالات، وتزايد أعداد الناس الذين يستطيعون الإطلاع على المعارف المتوفرة عن العالم.

وفي عالمنا المعاصر ثمة لغات علمية تتبوأ مكانة على الصعيد العالمي، ومن سمات اللغات العالمية أنها تؤدي وظائف رسمية في العديد من الدول ما عدا اليابانية التي لا تؤدي وظيفتها إلا داخل الوطن ا م اليابان. ومما يميز مكانة اللغة العالمية هو انتشارها على مستوى جميع قارات العالم، كما تتميز اللغة العالمية أيضاً بأنها لغة رسمية في دول ومناطق مختلفة من العالم ما عدا اللغتين الصينية و المانية، إذ على الرغم من أن اللغتين تؤديان في عدد من البلدان وظائف اللغة الرسمية إلا أن ذلك ينحصر في قارة واحدة، المانية في أوروبا، والصينية في آسيا.

وفي هذا المجال تحتل الإنجليزية المرتبة ا ولى، فهي اللغة الوحيدة بين جميع اللغات العالمية التي تستخدم لغة رسمية في قارات العالم كافة، حيث يبلغ عدد الدول التي تستخدم اللغة الإنجليزية لغة رسمية ٥٩/ تسعاً وخمسين دولة، وهو أكثر من ضعف عدد الدول التي تستخدم اللغة العالمية الثانية وهي الفرنسية، إذ يبلغ عددها ٢٨/ ثمانية وعشرين دولة^(١).

وتسود الإنجليزية لغة اتصالات دولية في مجال الإلكترونيات ونقل المعلومات، إذ أن ٨٠٪ من صفحات الموقع المتوفرة على شبكة الويب مكتوبة بالإنجليزية، وهذا ما يعيق نفاذ غير الناطقين بالإنجليزية إليها.

وتسود الإنجليزية أيضاً في مجالات الإدارة والتسويق، في حين تحتل اللغات العالمية ا اخرى مراتب تالية للغة الإنجليزية وبفارق كبير. كما أنها تسود في لغة الدبلوماسية الحديثة وفي داخل

المنظمات الدولية. وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر تقدمت الإنجليزية الصفوف لتغدو لغة العلوم القيادية على الصعيد العالمي.

ومن الملاحظ أن اللغة الإنجليزية تهيمن على مفردات اللغات الصغرى والكبرى في الوقت نفسه، وهما هي ذاتي المركبة تؤثر في أسلوب الحياة وذلك في أي محيط ثقافي، إذ إن نقل المصطلحات الإنجليزية لا يعرف في الواقع أي حدود، وهما هي ذاتي لغات عالمية من مثل الفرنسية والإسبانية والروسية واللغتين تقبس الكلمات الإنجليزية، كما تقبسها لغات أصغر تتحدث بها الملايين مثل الدانماركية والفنلندية والتشيكية.

بيد أن الدول الكبرى أحست بخطور هيمنة اللغة الإنجليزية وتأثير تلك الهيمنة في لغتها، وكان ممن تنبهوا إلى ذلك في وقت مبكر "بسمارك" فهو عندما سُئل عن أفضح الأحداث التي حدثت في القرن الثامن عشر أجاب: إن الجاليات الألمانية في شمال أمريكا اتخذت اللغة الإنجليزية لغة رسمية لها، وكان يأمل أن تتخذ هذه الجاليات اللغة الألمانية لغة لها كي يضمن ولائها لألمانيا، وقد أثبتت الأحداث صدق رؤيته، فقد وقفت أمريكا إلى جانب إنجلترا في الحربين العالميتين الأولى والثانية، وللغة دور كبير في تقارب الفكر وتوحيد الرؤى.

كما أن فرنسا تحاول بمختلف الوسائل تثبيت مكانة لغتها الفرنسية على الصعيد العالمي، وتحمل لواء الدعوة إلى التعدد الثقافي والتنوع اللغوي في المنظمة الدولية للتربية والعلوم والثقافة "اليونسكو"، محاولة بذلك الوقوف أمام هيمنة اللغة الإنجليزية على الصعيد العالمي والدفاع عن لغتها.

ويذكر "لويس جان كالفي" في كتابه "السياسات اللغوية" أنه: "في سنة ١٩١٩ صدرت أول مرة في تاريخ العلاقات الدولية معاهدة بلغتين الفرنسية والإنجليزية، ذلك أن الرئيس الأمريكي "ولسن" كان قد طالب بالأحرار معاهدة فرساي باللغة الفرنسية وحدها، كما جرت العادة إلى غاية هذا التاريخ، فهذا التاريخ ذو رمز، ذلك أن فرنسا منذ هذا التاريخ، كانت تناضل من أجل الحفاظ على المتزلة العالمية للغتها دون نجاح، ففي اليونسكو كما في هيئة الأمم المتحدة تستعمل الفرنسية إحدى لغات العمل، كما أن عدداً من المندوبيات تستعملها في مداخلاتها، بالإضافة إلى أن عدد الناطقين بالفرنسية في العالم يزداد باستمرار، ولم يعد الفرنسيون يشكلون أغلبية في مجموع الفرانكفونيين، ولم تعد اللغة الفرنسية لغة فرنسا

وحدها، وعلى الرغم من ذلك كله ثمة وضع جديد، إذ لم تعد الفرنسية اللغة العالمية الأولى، فقد تجاوزتها الإنجليزية أيما تجاوز" (١٥).

وورد في وثائق وزارة الشؤون الخارجية الفرنسية أن "علينا - أي الفرنسيين - ألا نخطيء الغاية، إن الأمر لا يتعلق بإعلان الحرب على الإنجليزية، بل بالنضال من أجل المحافظة على التعددية اللغوية الثقافية التي تبدو لنا ضرورية لا بالنسبة لنا فحسب، بل بالنسبة للعديد من شركائنا" (١٦).

ويعقب "لويس جان كالفي" على هذا الكلام قائلاً: "إلا أن السياسة اللغوية للفرانكفونية يبدو أنها تتجاهل اللغات الموسومة بـ "لغات الشركاء"، وتضرب بمبدأ التعددية اللغوية المصرح به في أماكن أخرى عرض الحائط، وعدم الاحتفال بامتزاج اللغات في التنمية عندما يتعلق الأمر بالفرنسية في أفريقيا، وأن المبادئ المصرح بها في السياسة الفرنسية "التعددية اللغوية بأوروبا والحوار بين الفرنسية ولغات الشركاء في الفضاء الفرانكفوني" وفي دفاعها عن التعددية اللغوية في اليونسكو، ليست كذلك في أغلب الأحيان، إن استراتيجيتها تقوم على الدفاع عن الفرنسية، وإن كانت لا تجهر بذلك" (١٧).

ومما يؤيد وجهة نظر "لويس جان كالفي" صاحب كتاب السياسات اللغوية أن الجمعية الوطنية الفرنسية أصدرت قراراً عام ١٩٩٤ ينص على عدم السماح بعقد المؤتمرات العلمية المتحدثة بالإنجليزية على أرض الفرنسية، ووضع البرلمان الفرنسي قائمة بالكلمات السود التي يحظر استعمالها في لغة الإعلام والإعلان.

وتشير الوقائع إلى أن اللغة المهيمنة لا تؤثر في اللغة غير المهيمنة فحسب، بل إنها تولد عوامل تجذب الأخيرة إلى الانصهار في الأولى، ويعني هذا أن المتحدثين باللغة غير المهيمنة يتخلون آجلاً أو عاجلاً عن لغتهم الأم، ويعتمدون اللغة المهيمنة.

ففي أستراليا لا تسمح اللغة الإنجليزية المهيمنة بأي من اللغات الأخرى الصغيرة بأي حرية من التصرف مهما تكن الأسباب.

وفي روسيا بعد انهيار الاتحاد السوفييتي بقيت اللغة الروسية مهيمنة، فقد أجري استطلاع للرأي في بيلاروسيا عام ١٩٩٥ حول اللغة الروسية، إذ قرر ٨٣% من المستفتين من الروس البيض الاعتراف بمساواة اللغة الروسية مع لغة روسيا البيضاء لغة رسمية في البلاد، وبهذا

استعادت اللغة الروسية مكانتها السابقة المهيمنة كما كان عليه الحال في عهد الدولة السوفيتية، وعادت اللغة الروسية البيضاء من جديد للوقوع مباشرة تحت نفوذ اللغة الروسية.

وفي الجمهوريات السوفيتية السابقة ذات ا غلبية السكانية غير الروسية، والتي أصبحت اليوم دولاً مستقلة، ما يزال ضغط اللغة الروسية داخل البلاد ا م لهذه اللغة مستمراً^(١٨).

وهكذا نلاحظ الفرق بين لغة الغالب عندما تكون طبيعة الغالب حضارية إنسانية كما تمثل ذلك في لغتنا العربية ورسالتها الحضارية الإنسانية وبين لغة الغالب عندما تكون طبيعته متعالية على ا حرين، مستهينة بثقافات الشعوب ولغاتها الوطنية، وعاملة على سيرورة لغتها وانتشارها على جميع الصعد، كما هي عليه الحال في العولمة الثقافية المعاصرة ذات القطبية ا حادية ولغتها الإنجليزية.

والسؤال الذي لا بد من الإجابة عنه هو ما الموقف الذي ننشده في وطننا العربي تجاه لغتنا العربية وما تواجهه من تحديات خارجية تتمثل في تهميشها واستبعادها ووصمها بالتخلف على أيدي أعداء امة ومن تحديات داخلية تعمل على استبعادها أيضاً، ولكن ليس على أيدي أعدائها وإنما على يد نفر من أبنائها؟ هذا ما سنحاول تعرّفه في الفقرات التالية.

رابعاً - الموقف المنشود

تحافظ اللغة على الهوية من الضياع، وعلى الشخصية من الذوبان والاستلاب، وثمة ارتباط بين اللغة والهوية، والمحافظة على إحداها محافظة على ا أخرى، وإن في إنقاذ إحداها إنقاذاً للأخرى، "وتسهم اللغة في عملية تهيئة ا فراد للانخراط في المجتمع والبحث عن هويتهم، ذلك ن عملية تشكيل الهوية لدى الفرد هي المحرك لسلوكه الاجتماعي، وتعد الهوية الفردية من جانبها شرطاً مسبقاً لبناء هويات جماعية أي للتراص الداخلي للمجموعات، ولا يستطيع الناس النجاح إلا عند العيش في مجموعات، وتتطلب المجموعات من جانبها ومن أجل أن تكون قادرة على أداء وظائفها بصورة كاملة هوية سليمة ومستقرة قدر الإمكان تستطيع أن تعبر عن نفسها بمختلف أشكال التعبير"^(١٩).

وتؤدي اللغة في تشكيل الهوية دوراً أساسياً، فلقد تبين في تاريخ الثقافة أن اللغة هي أكثر أنظمة الإشارات فعالية، وأكثرها قدرة على التأقلم، وأكثرها وجهاً من حيث وظائفها التواصلية لخدمة تشكيل الهوية، وهي في ضوء تعقد أشكالها التعبيرية مؤهلة على أحسن وجه لمواجهة المتطلبات الموجهة للناس في تفاعلهم مع محيطهم الثقافي، والتأقلم بمرونة مع الشروط الموجودة في مجتمع متغير.

ومن هنا كان تعدد اللغات في العالم أداة للهوية الإنسانية لا يمكن الاستغناء عنها من أجل مواجهة متطلبات الثقافة المحلية والمحافظة على السلوك الاجتماعي وجعله يؤدي وظائفه تحت مختلف الظروف الاجتماعية^(٢٠).

إلا أنه في ظل العولمة تحوّل الصراع على اللغة إلى صراع على الهوية وإثبات الذات والمحافظة على الكيان والطابع القومي، وإذا كانت لغتنا العربية تتعرض لحركة تهميش نشطة بفعل الضغوط الهائلة الناجمة عن طغيان اللغة الإنجليزية على الصعيد السياسي والتقني "التكنولوجي" والمعلوماتي، وتشارك اللغة العربية في ذلك معظم لغات العالم، فإن العربية تواجه تحديات إضافية نتيجة للحملة الضارية التي تشنها العولمة ضد الإسلام ولغة قرآنه العربية نظراً إلى شدة الارتباط بينهما^(٢١).

ومن مظاهر محاربة اللغة العربية وتغييبها من على نطاق الساحة العالمية التوجه إلى إلغائها من بين اللغات العالمية الرسمية في منظمة الأمم المتحدة، واللغات العالمية الرسمية في المنظمة هي: "الإنجليزية، الفرنسية، الإسبانية، الروسية، الصينية، العربية"، وذلك للأسباب الثلاثة التالية:

١ - عدم وفاء معظم الدول العربية بالتزاماتها المتعلقة بدفع نفقات استعمال العربية في المنظمة.

٢ - عدم استعمال مثلي الدول العربية للغة العربية في الأمم المتحدة فهم يستعملون الإنجليزية أو الفرنسية في مداخلاتهم وكلماتهم.

٣ - عدم وجود مترجمين عرب أكفاء يجيدون اللغة العربية.

وقامت بعض الجامعات الأمريكية بإلغاء تدريس اللغة العربية والاستعاضة عنها باللهاجات العربية مثل الشامية والمصرية والمغربية والعراقية، كما أن فرنسا عملت على استبعاد العربية من امتحانات الشهادة الثانوية، حيث كان يسمح للطالب باختيار لغة ثانية كالإنجليزية والمانية

والإسبانية والعربية. وابتداءً من عام ١٩٩٥ لم تعد العربية من بين هذه اللغات، واستعيض عنها بعدد من اللهجات العربية والكتابة بها^(٢٢).

ومن ا ساليب التي تحارب بها العربية إحياء الدعوة إلى استعمال اللهجات العامية، وتشجيع البحوث التي تخدم العاميات وتقديم الدعم المادي لها، واتخذت محاربة اللغة العربية الفصيحة أشكالاً متعددة منها وصم لغتنا بالتخلف وعدم مواكبة العصر والتفجر المعرفي، وبأنها لغة البداوة وليست لغة العلم، ووصمها بالصعوبة والتعقيد بسبب نحوها وصرفها وكثرة الحركات فيها، وأنها تفهم لتقرأ خلافاً لبقية اللغات^(٢٣).

ومن ا ساليب أيضاً إحياء لغات ا قليات وتقديم الدعم للقائمين بها تحت شعار حقوق الإنسان، إذ أن ثمة دعوة لتشجيع ا مازيغية والكردية واعتمادهما لغتين رسميتين في الوطن العربي.

ومن الملاحظ أن ثمة تغييراً للغة العربية لمصلحة الإنجليزية في الوطن العربي، على أن الإنجليزية هي لغة عمل وتواصل على الصعيد كافة، بدءاً من النشر العلمي وتبادل الخبرات التقنية "التكنولوجية" ومروراً بالتعليم العالي والتجارة والصناعة والإعلام والإعلان وغيرها، وصولاً إلى التعليم ا ساسي ورياض ا أطفال. وهذا يعني ضمور اللغة العربية واستعمالها في مجالات تقليدية محددة.

وإذا كان المستبدون ا تراك في عهد جماعة الاتحاد والترقي قد عملوا على تغييب اللغة العربية وتدريس التركية مكانها، كما عمل الفرنسيون في سورية والجزائر على فرض لغتهم مكان العربية، وعمل الاستعمار الإنجليزي أيضاً على فرض لغته في مصر وتدريسها بدلاً من العربية التي اعتمدها محمد علي في مُهضته، فإن ثمة نفرًا من المفكرين العرب في عصر النهضة وفي ضوء تقليد المغلوب للغالب والنظر إلى لغته على أنها ا كمل، راحوا يدعون إلى استبدال الحروف اللاتينية بالعربية، فظهرت الدعوات إلى أن على العرب كي يلتحقوا بركب العصر أن يهجروا العربية الفصيحة، وأن يستبدلوا بحروفها اللاتينية وأن يكتبوا بالعامية، وقد حمل لواء هذه الدعوة بعد عدد من المستشرقين كل من سلامة موسى وعبد العزيز فهمي في مصر، وسعيد عقل في لبنان حيث طبع ا خير ديوانه "يارا" بحروف لاتينية^(٢٤).

ويقوم بعض الشبان حالياً بكتابة اللغة العربية بأحرف لاتينية في تواصلهم عبر الشبكة "الإنترنت" بعد أن طوروا حروفاً وأرقاماً لاتينية تقابل حروف العربية من غير حاجة إلى استخدام الحركات، وما ذلك إلاّ مظهر من مظاهر الشعور لديهم بأن الحروف اللاتينية أرفع من حروف لغتهم ا م، وما علموا أن هذا السلوك يؤدي إلى غياب لغتهم، وفقدان هويتهم.

ومن مظاهر التغييب الجزئي لبعض قواعد اللغة ونظامها وتمشياً مع دعوة اليونسكو إلى إزالة الجنسوية "ا ثار النمطية والسلبية لدور الرجل والمرأة" من الكتب المدرسية وأدب ا طفل، إلغاء التمييز بين المذكر والمؤنث لصالح الذكورة عندما يكون الحديث عن البنين والبنات، والدعوة إلى تأنيث أسماء المناصب مثل: رئيس، عميد، عضو، مدير، أستاذ... إلخ^(٢٥).

وإذا كانت دساتير الدول العربية تنص على أن اللغة الرسمية للدولة هي العربية فإننا نلاحظ أن ثمة هوة بين ما تنص عليه الدساتير وما يُطبّق على أرض الواقع، وإذا كنا نحمل أعداء أمتنا مسؤولية تغييب لغتنا فإن المسؤولين في أمتنا مسؤولون أضعاف ما يتحمله ا عداء من مسؤولية، إذ أنهم لم يعملوا على وضع حد لهذا التسبب اللغوي على نطاق الساحة القومية، فنرى نفرّاً من أبناء ا مة يعتقد أن في استخدام اللغة ا جنبية أمانة على التقدم والعلم وا ناقة في الوقت الذي يرى فيه أن في استخدام اللسان العربي دلالة على التخلف، وها هي ذي ا م في الطبقات الحريية تخاطب أبناءها باللسان ا جنبي، وها هو ذا التاجر يخاطب زبونه باللسان ا جنبي، وها هو ذا المثقف يطعم كلامه بالكلمات ا جنبية دلالة على ثقافته العصرية، وها هي ذي الشركات على ا رض العربية تعلن عن حاجتها إلى موظفين يتقنون اللغة ا جنبية، وها هي ذي المراسلات بين المصارف تستخدم ا جنبية، وها هي ذي الإعلانات في الطرقات وفي الساحات العامة وعلى واجهات المحال التجارية تستعمل الكلمات ا جنبية^(٢٦).

ونلاحظ في الوقت نفسه أن العاملين والعاملات في دول الخليج العربي ومن جنسيات مختلفة ليسوا في حاجة إلى أن يتعلموا العربية ثم يقضون حاجتهم وينفذون متطلباتهم باستعمال ا جنبية مع أبناء العربية الذين تنازلوا عن لغتهم القومية ليتحدثوا مع هؤلاء بلسانهم أو بلسان أجنبي آخر، كما نلاحظ أن المؤتمرات العلمية التي تعقد في منطقتنا العربية تستخدم اللغة ا جنبية، في بعضها على الرغم من أنها تعالج موضوعات عربية، كما أن ممثلينا في المحافل الدولية يستخدمون ا جنبية في مداخلاتهم ومناقشاتهم وإلقاء كلماتهم على الرغم من أن لغتهم العربية معتمدة بين اللغات العالمية في ا م المتحدة والمنظمات التابعة لها، ونسأل أنفسنا: كيف نطلب

من ا خرين أن يحترمونا، ونحن لم نحترم أنفسنا وهويتنا ولغتنا المعبرة عن ذاتيتنا الثقافية وأصالة أمتنا؟(٢٧).

قد يقول قائل: إن طبيعة العصر تفرض ذلك في ظلال هذه العولمة الثقافية ولا يمكننا إلا التعامل مع هذه العولمة بإيجابية، بيد أن الموقف المنشود يرمي إلى أن للعولمة جانباً مضيئاً يتمثل في انفتاح الشعوب على بعضها، والإفادة من معطيات عصر العلم والتقانة والتفجر المعرفي والانتشار الثقافي والاتصالات السريعة، ولكن للعولمة جانباً مظلماً يتمثل في استخدام منطق حق القوة والغلبة لا قوة الحق، وفي الهيمنة والتهميش والإقصاء من خلال محاربة التنوع الثقافي واستبعاد اللغات الوطنية من أن تتبوأ مكائنها لصالح لغة الغالب والمهيمن. وهذا ما نجده على نطاق الساحة العربية ولكننا لا نجده لدى الشعوب ا اخرى التي تتعامل مع العولمة العلمية والتقانية والاقتصادية وتتفاعل معها وتتطور وتفعل ذلك كله بلغتها كما نجد ذلك لدى اليابانيين والكوريين والمان والفرنسيين والإيطاليين وحتى إسرائيل العنصرية أحيث لغتها العبرية الميته منذ ألفي سنة لتستعملها في مجالات الحياة كافة، إذ إنها أعادتها إلى الحياة في تعليمها الرسمي والخاص وفي جميع شؤون حياتها، وما هي ذي جامعاتها تدرّس باللغة العبرية، وسمت الجامعة ا ولي لديها الجامعة العبرية وليس اليهودية أو الإسرائيلية نسبة إلى اللغة والثقافة التي تريد إحياءها وتطويرها من خلال التدريس بها والبحث العلمي بوساطتها، ولا توجد في إسرائيل مدرسة واحدة تدرس بغير العبرية كما يقول الدكتور عزمي بشارة، ويشير إلى أن خبراء التخطيط ا مريكي أنفسهم يمتدحون التجربة الإسرائيلية في التعليم أمام مستمعهم العرب في الوقت الذي يشجعون فيه العرب على الانتقال إلى التدريس بالإنجليزية(٢٨).

ويتساءل أحدنا: لم يصغي بعض أبناء أمتنا من الموسرين في الطبقات الحريية إلى دعوات يروج لها أجانب في أن لغة العلم حالياً هي اللغة الإنجليزية، وأن التعليم بها في المدارس والجامعات الرسمية والخاصة هو الحل لمجاعة عصر العولمة والاتحاق بركب التقدم والارتقاء، متناسين أن التعليم باللغة ا م إنما هو ا ساس للتقدم على مختلف الصعد تربوياً وثقافياً واقتصادياً وإبداعاً وابتكاراً، و"أن المجتمع الذي لا ينجز نهضته في بلده بلغته ا م لا يتفاعل مع العولمة ولا يجاري التطور في الاقتصاد والعلم والفنون يبقى على هامش الحضارة الإنسانية ولا يسهم فيها، بل أكثر من ذلك يحجب التطور عن لغته ذاتها ما دامت بعيدة عن الاستخدام في المجالات الدينامية المتطورة والمتغيرة باستمرار مثل العلوم والفنون والاقتصاد"(٢٩).

وثمة مقترحات في نهاية هذا البحث أوجزها فيما يأتي:

١ - جميل جداً أن يكون المرء ثنائي اللغة، يحسن لغتين في آن واحد، إحداهما لغته أم،
واخرى لغة أجنبية عالمية كالإنجليزية، وجميل جداً أن يكون متمكناً من اللغتين معاً، لأن
يكون تمكنه من أجنبية على حساب لغته أم واستبعادها من التعامل والتفاهم، واجمل من
ذلك كله أن يكون في تمكنه من اللغة أجنبية أو اللغات أجنبية إغناء للغته وتجديد لها
مصطلحات ومفاهيم وأساليب... إلخ ألم يقل شاعرنا العربي:

بقدر لغات المرء يكثر نفعه وتلك له عند الشدائد أعوانُ
فبادر إلى حفظ اللغات مسارعاً فكلُّ لسانٍ بالحقيقة إنسانُ

٢ - تطبيق ما تنص عليه دساتير الدول العربية من حيث إن اللغة الرسمية في الدولة إنما هي
العربية الفصحى، على أن يكون التطبيق جاداً وبكل شعور بالمسؤولية تجاه اللغة العربية من
حيث أبعادها كافة دينياً وتربوياً واجتماعياً وقومياً ووطنياً... إلخ.

٣ - وضع خطة عمل إقليمية لدول الخليج العربي ووطنياً ترمي إلى التمكين للغة العربية في
جميع المجالات التربوية والثقافية والإعلامية والاقتصادية والدينية... إلخ. ويمكن الاستئناس في
هذا المضمار بخطة العمل الوطنية السورية للتمكين للغة العربية والحفاظ عليها والاهتمام بإتقانها
والارتقاء بها، والتي تم وضعها بتوجيه من رئيس الجمهورية السيد الرئيس بشار الأسد.

٤ - حسم موضوع التعريب، وها هي ذي الحجج والدلة تشير إلى أن من يتعلم بلغته أم
هو أجدى تربوياً وقومياً واجتماعياً واقتصادياً وإبداعاً وابتكاراً، وليس ثمة ما يحول دون
تدريس مقرر أو مقررين باللغة أجنبية، أما أن يتخلى العرب عن لغتهم أم في العملية
التعليمية التعليمية في المدارس والجامعات الخاصة فهذا أمر استغربه ممثل منظمة الصحة العالمية،
ويصعب على مواطن ياباني أو فرنسي أو ألماني أو حتى إسرائيلي أن يفهم كيف يمكن أن يولد
أطفال لوالدين فرنسيين أو يابانيين أو ألمانيين أو إسرائيليين ينمون وينشأون، ولكنهم لا
يتحدثون لغتهم أم لا في البيت ولا في المدرسة، ولا يدرسون العلوم في بلدهم بلغتهم، فهذا
أمر طبيعي وبدهي بنظر مواطن تلك البلاد، ومطلوب حتى من المهاجر من بلده، فكيف بالحري
من ولد فيها؟

ولكننا نلاحظ أنه في بعض أوساط الطبقة الوسطى والعليا في بعض الدول العربية من فاق اليابانيين والفرنسيين والكوريين ولمان تطوراً! حتى بات استخدام الإنجليزية في البيت والمدرسة وبين أهل عرب وأبنائهم في بلد عربي حالة منتشرة، وهذه حال تؤسس لتحوُّل الخلاف الطبقي والاجتماعي إلى خلاف حضاري يحوِّلنا إلى أكثر من شعب في البلد نفسه. كما أن مدارس النخبة عندما تدرس بمنهج آخر ولغة أخرى غير العربية، فهذا يقلل الاهتمام بالتعليم العام ويُفقر اللغة، ويحوِّل الفئات الاجتماعية المتفاوتة طبقياً إلى ثقافات تكاد تكون شعبياً تتكلم لغة مختلفة، وتباین في الفضاء الثقافي والذوق والعاطفة^(٣٠)...

لقد غلبت اليابان واستسلمت في الحرب العالمية الثانية تحت وطأة القنابل الذرية الأمريكية، ففرض الأمريكيون الغالبون شروطهم المححفة على اليابان المستسلمة مثل تغيير الدستور، وحل الجيش، ونزع السلاح... الخ، وقد قبلت اليابان جميع تلك الشروط ما عدا شرطاً واحداً لم تقبل به، وهو التخلي عن لغتها القومية في التعليم، فظلت مصرّة على استعمال لغتها الأمريكية، وكانت لغتها الأمريكية منطلق نهضتها العلمية والصناعية الجديدة.

ومن يلق نظرة على واقع التعريب في أمتنا العربية يجد أنه موضوع قديم جديد، طُرح في أمتنا خلال قرن كامل، وما يزال مطروحاً حتى هذه الساعة، في الوقت الذي حسمته أمة أخرى عندما اعتمدت لغتها الأمريكية في شؤون حياتها، ولم تكن للغاتها عراقية لغتنا العربية في مسيرة الحضارة البشرية، فهذا هي كوریا وفيتنام وبلغاريا وفرنلندا واليونان... الخ تدرس بلغتها الوطنية، في الوقت الذي نجد فيه على نطاق الساحة القومية أنه لا يوجد قرار تعريب جدي ولا قرار مضاد، وهذا الإهمال يعني في الحقيقة استمرار التخلف والتبعية والمية، ذلك أن كل قرار يستهدف التقدم والتطور يتساوى منطقياً مع قرار التعريب، فمضمون القرارين واحد يتمثل في سياسة قومية تخطط لمستقبل عربي، ولن يتم إصلاح في حال غياب سلطة لها نفوذ على الصعيد القومي "ولن تجرؤ السلطات الخاضعة لمنطق الإقليمية على تبني الإصلاح لها تعتمد الازدواجية السياسية، فهي تحافظ في دساتيرها على اعتماد العربية الفصيحة لتكسب قدراً من الشرعية أمام جماهيرها، وتفسح في المجال لنشر لسان أجنبي لتحقيق قدر من التحديث أمام الآخرين، وترك الحرية للهجات العامية لتضمن قدراً من الاستقلال الداخلي على حدّ تعبير الباحث المغربي عبد الله العروي"^(٣١).

وهكذا يتبدى لنا موضوع التعريب متمثلاً في "عدم اتخاذ القرار الحاسم لاعتماد العربية وتبنيها في العملية التعليمية التعلّمية في الجامعات، وبقاء ا مور معلقة، واستمرار التخلف والتبعية و ا مية، وعدم استنبات العلم عربياً، وتسيّب لغوي قومي، وشعور بالتصاغر والتكابر، التصاغر تجاه الثقافة ا جنبية، والتكابر تجاه ثقافتنا القومية وتراثها الحضاري"^(٣٢).

وتجدر الإشارة إلى أن التلكؤ في تطبيق التعريب من جهة، والتسويق في هذا الإنفاذ من جهة ثانية أمر يحتاج إلى حسم وإصدار القرار السياسي اللازم، ولا مسوّغ إطلاقاً لهذا التريث وذلك التسويق، وها هي ذي سورية العربية قد اتخذت القرار منذ عشرينيات القرن الماضي، واعتمدت اللغة العربية الفصيحة لغة التعليم ولغة الحياة حتى إن السيد "بونور" مدير المعارف العام في المفوضية العليا في العشرينيات من القرن الماضي إبان الانتداب الفرنسي على سورية يخاطب أساتذة الجامعة السورية آنذاك قائلاً: "لقد أردتم أن تكون أداة هذا التجدد وهذه الثقافة اللغة العربية، ولستم مخطئين في اختياركم لها، كونوا واثقين أنكم أحسنتم صنعاً بانتقائها، فإن من يزعمون أن اللغة العربية غير صالحة للتعبير عن مصطلحات العلم الحاضر هم على خطأ مبين، فالتاريخ يثبت أن لغة الضاد كسائر اللغات ا اخرى غنية باشتقاقاتها، وكافية بكثرة تراكيبيها للتعبير عن ا فكار الجديدة والارتباطات الحديثة التي تربط تلك ا فكار، فإن فلاسفة العرب حينما نقلوا في القرن التاسع إلى لغتهم رسائل أرسطو طاليس تمكنوا من نقل العلوم كما في عهد ابن سينا والغزالي وابن رشد، فما من ينكر والحال هذه أن اللغة العربية صالحة لمباشرة اللغات ا اخرى وللتعبير عن ا فكار العلمية الحديثة".

ويتابع قائلاً: "واعلموا أن اندفاعكم إلى إيجاد مؤسسة علمية كبيرة عربية اللسان هو على ما أرى أكبر دليل على حذاقتكم، فظلوا أبدأ محافظين على هذه ا داة البديعة التي نحن مدينون لها بكثير من ا عمال الباهرة، وبعده من ا أشكال الجميلة التي تجلّى بها الفكر البشري".

وما أجمل ما انتهى إليه عندما يقول: "إنني أهنيء العرب، وأتمنى ألا يضيعوا هذا الاحترام المقدس للغتهم، ن من يدافع عن لغته يدافع عن أصله وعن حقه المقبل، وعن كيانه، وعن لحمه ودمه، وإنكم تفهمتم هذا ا مر جيداً"^(٣٣).

وإذا كان أساتذة الجامعة السورية منذ ما يقرب من قرن قد تفهموا هذا ا مر جيداً على حد تعبير السيد "بونور" وها هي ذي مخرجات التعليم في الجامعات السورية وفي الكليات العلمية

من طب وهندسة وعلوم... إلخ تثبت جدارتها وتفوقها على مختلف الصعد بسبب دراستها باللغة الألمانية. لها إلمامٌ بقدر على الاستيعاب والفهم والتمثيل، فإن نقرأ من أبناء أمة ما يزالون حتى هذه الساعة مصرين على وجهة نظرهم في استبعاد العربية من التدريس الجامعي، ولم يتفهموا ما دعا إليه السيد "بونور" من جهة، وما تطبقه دول أخرى حريصة على التعليم بلغتها الألمانية من جهة أخرى، على الرغم من أن دستور البلاد ينص على استعمال العربية لغة رسمية في شؤون البلاد كافة انطلاقاً من كونها اللغة الألمانية، واللغة الوطنية، والقومية، ولغة القرآن الكريم، والمحافظة على التراث الثقافي العربي من الاستلاب والذوبان والضياع!

الموامش

- (١) مقدمة ابن خلدون - دار إحياء التراث العربي - بيروت لبنان - بلا تاريخ - ص ١٤٧.
- (٢) المرجع السابق.
- (٣) حامد عبد القادر - بين العربية والفارسية - مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق - ١٩٦٠ - ص ٣٦٢.
- (٤) الدكتور مصطفى الشهابي - تأثير العرب والعربية في الفلاحة الرومية - مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق - مج ٣٦ - سنة ١٩٦١ - ص ١٨١.
- (٥) المرجع السابق - ص ١٨٤.
- (٦) الدكتور أبو القاسم سعد الله - بين العرب والإسبانية - المجلد ٧٣ - ج ٢ - ١٩٩٨ - ص ٣٥٧.
- (٧) الدكتور مسعود بوبو - العرب ولغات أجنبية - المرجع السابق - ص ٢٧٢.
- (٨) مبارك الباكستاني - الكلمات العربية في اللغة الرومية - مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق - ص ٢٥٨.
- (٩) حامد عبد القادر - بين العربية والفارسية - مرجع سابق - ص ٣٦٢.
- (١٠) المرجع السابق.
- (١١) الدكتور محمد سويسي - العربية ولغة العلم - مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق - المجلد ٦١ - عام ١٩٨٦ - ص ٦٧١.
- (١٢) المرجع السابق.
- (١٣) برنارد لويس - الإسلام والغرب - ترجمة الدكتور فؤاد عبد المطلب - اتحاد الكتاب العرب - ٢٠٠٧ - ص ١٩٩٣٠.٩٧ - Bernard Louis - Islam and the West - N.Y Oxford University Press.
- (١٤) هارالد هارمان - تاريخ اللغات ومستقبلها "عالم بابلي" - ترجمة سامي شمعون - مراجعة محمد حرب فرزات - المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث - الدوحة - ٢٠٠٦ - ص ١٦٨.

- (١٥) لويس جان كالفى - السياسات اللغوية - ترجمة محمد يجياتن - الدار العربية للعلوم - ناشرون - بيروت - الطبعة ١ ولى - ٢٠٠٩ - ص ١١٨ .
- (١٦) Ministre des Affaires Etrangeres, Histoires de diplomatie Culturelle des Origines ١٩٩٥, la Documentation francaise ١٩٩٥, P١٧٩.
- (١٧) لويس جان كالفى - السياسات اللغوية - مرجع سابق - ص ١٢١ - ١٢٢ .
- (١٨) هارالد هارمان - تاريخ اللغات ومستقبلها "عالم بابلي" - مرجع سابق - ص ٣٥٦ .
- (١٩) المرجع السابق - ص ٤٥ .
- (٢٠) المرجع السابق - ص ٤٦ .
- (٢١) لجنة تمكين اللغة العربية برئاسة الدكتور محمود السيد - دار هارون الرشيد لنشر العلم والمعرفة - دمشق - ٢٠٠٨ - ص ٦ .
- (٢٢) الدكتور عبد السلام المسدي - مكانة اللغة العربية في مواجهة انتشار اللهجات العامية عبر وسائل الإعلام - مجلة العربي نصف قرن من المعرفة والاستنارة - ج ١ - وزارة الإعلام - الكويت - ٢٠٠٨ - ص ٦٣ .
- (٢٣) الدكتور محمود أحمد السيد - اللغة العربية وتحديات العصر - وزارة الثقافة - دمشق ٢٠٠٨ - ص ١٧٨ .
- (٢٤) الدكتور أحمد الضبيب المؤتمر السنوي السابع لمجمع اللغة العربية بدمشق - التجديد اللغوي بين الواقع والمأمول - دمشق ٢٠٠٨ - ص ٨ .
- (٢٥) المرجع السابق - ص ١٠ .
- (٢٦) الدكتور محمود أحمد السيد - اللغة العربية وتحديات العصر - مرجع سابق - ص ١٠٥ .
- (٢٧) الدكتور محمود أحمد السيد - اللغة العربية وتحديات العصر - مرجع سابق - ص ١٠٦ .
- (٢٨) الدكتور عزمي بشارة - تحويل الصراع على اللغة إلى صراع على الهوية - جريدة الحياة - العدد ١٦١٦٢ - تاريخ ٥ تموز ٢٠٠٧ .
- (٢٩) المرجع السابق .
- (٣٠) الدكتور عزمي بشارة - المرجع السابق .
- (٣١) عبد الله العروي - ثقافتنا في ضوء التاريخ - المركز الثقافي العربي - بيروت الطبعة الثانية - ١٩٨٨ - ص ٢٨ .
- (٣٢) الدكتور محمود أحمد السيد - في قضايا التعريب - دمشق - ٢٠٠٢ - ص ٢٢ .
- (٣٣) الدكتور محمود أحمد السيد - اللغة العربية وتحديات العصر - مرجع سابق - ص ٩٣ .